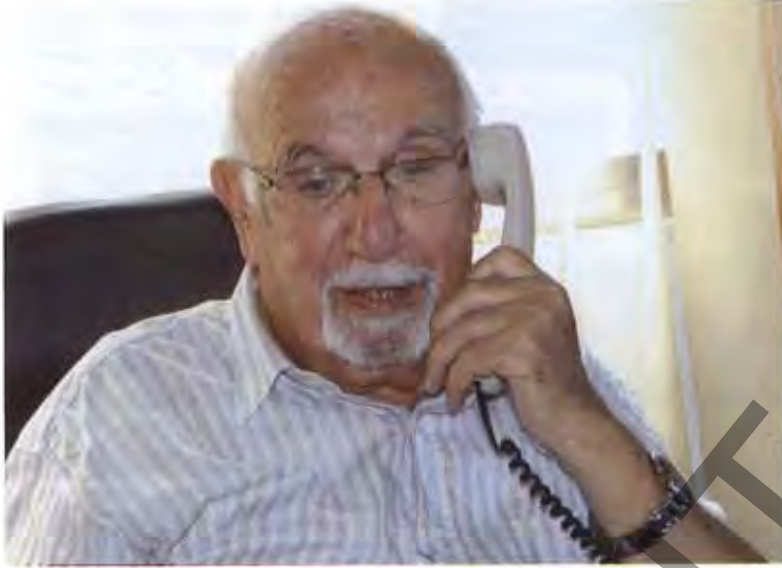


السيد الجعفري النجفي المثقف وذكريات عبرت (ا)

# حسين شرف الدين



أطل علينا كما الفجر الأرجواني ليتلو على صباحات أجيال نافذة دونها الأفاق البعيدة. التي رحنا نتداولها كإشراقه أمل، حملتنا مع تقادم الأيام إلى مفترقات طرق، اختارها كل منا على هواه.

والد... المعلم...  
والإنسان الصديق.

حسين شرف الدين، هو ببساطة ذاكرة مدينة، بعدما صرف حياته في أدق تفاصيلها. أعطاها "الثمانون" من عمره، معلماً، مربياً... ومناقلاً. ترى هل كان يحلم بمدينة فاضلة؟ أجاب:

الجواب ليس عندي، لكن في سريري أعتقد ذلك. وما أجزمه حسياً، إن حسينا لم يعيش حياته خارج مدار الزمن، فكان على تواصل مع الجميع، كما هو حال اليوم، فاطياف المجتمع هي المكونة له، وليس العكس، هو من جزيرة نادرة تعرف أن التواصل مع الآخر والاعتراف به، لغة حياة، لذا لا تاريخ شخصياً له معزول عما يدور حوله، فسيرته حياته تقرأ من خارجها، بعيداً عن الشخصانية المتداولة على نطاق واسع في زمن منهار.

حسين شرف الدين

ولد في النجف العام 1929، وبعد أربع سنوات حط رحاله مع عائلته في مدينة صور، وما زال يسكنها كأسلوب حياة وعطاء. كان أضاف إلى دوره كأستاذ في الكلية الجعفرية التي تربي أصلاً بين أحضانها البكر، مرشداً اجتماعياً... وسياسياً، حيث زرع في دواخل طلابه معنى القومية العربية.

السيد حسين شرف الدين لم يتلوث بهوس طائفي وظل مخلصاً لاثنتين أثراً في حياته، الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين ونجله السيد جعفر. ذهب إلى لغة تجمع ويصر عليها لحد الآن، وكأنه يخرج خارج معطى ما هو حاصل اليوم.

جيلكم ينتمي إلى مدرسة الحياة، ولكن لا بد من السؤال أين كانت مدرستك الأولى؟ في موقع ما. أجدك تمتدحني على مذهب: "ليت عينيه سواء". الدينية ليست خلفية

الجعفرية أول صفٍ للمرحلة المتوسطة بحيث استوعب بعضاً من دفعتنا ومن نجح بالشهادة الابتدائية من المدارس الأخرى. وثم تلاها دفعات من قضائي بنت جبيل - بشكل أساسي - والنبطية، وكان يلتحق بالدراسة التكميلية أيضاً طلاب من قضاء مرجعيون ومع ذلك كان ينسحب البعض إلى سوق العمل دون إتمام المرحلة، ومن هذا البعض من ينسحب على كره، فيثير في نفسه عزيمة للمتابعة متكناً على جهده وعزمه، ويدعوه إلى هذا أنه بحاجة بالدرجة الأولى إلى بلغة تعينه على مواجهة الحياة، وكان التعليم الرسمي هو المسور أمامه، وإذا استقر بعضهم إلى بلغته، أخذ الأهبة استعداداً لمتابعة مرحلة الثانوية، وهذه ليست صورة خاصة بي أو بجيلي في صور، ولكنها لعامة جبل عامل.

الطموح إلى أين؟ هل كانت الوظيفة هاجساً يرتجى؟ لو كان الأمر كذلك لاكتفى بـ (البريقه)، ولكن اللافت أنه يسعى لنيل الشهادة الثانوية وهي آخر الطريق حينذاك في الجنوب، وماذا بعد والسبيل الوحيد هو إحدى الجامعتين: اليسوعية أو الأميركية؟ وليس من (حقه) أن يقلت زمامه فيحلم

عندي، إنها وجودي ووجهي وفكري وسلوكي، ووطنفتي هي جماعتي التي أستمد منها الهواء والماء، ومذهبي هو الذي يأخذني إلى عقيدتي، وعقيدتي أبوابها مفتوحة على الأرض والسماء وكل من في الأرض والسماء. واسمح لي الآن أن أعود معلماً كما كانت ذلك، وأصدقك القول وأنت تتخذني صديقاً يقدم مشورة بأن تتبعد عن كل مصطلحات الذين يبنون آراءهم على طريقة (الفاسد فود).

وعلى خلفية ما قدمت. أرغب أن أقول بأن جيلنا جيل معاناة ضيق المعيشة وويلات الحرب العالمية الثانية، ولذلك هو من جيل المجاهدة لنيل أبسط الأشياء، وكيف يكون الأمر بالنسبة للدراسة.

السؤال فتح أمامي درياً عريضة أخذتني إلى ماضي وماضي جبلي وعدة دفعات بعد، كانت تتحكم بدراستهم الأحوال المعيشية بحيث يتحول غالبهم إلى سوق العمل، إن كان محلياً أو هجرة، ويساعد على هذا أن المراحل الدراسية في صور كانت تقف عند نهاية المرحلة الابتدائية، رسمية أو خاصة.

من الجعفرية انطلقنا

من توفيقات جبلي أن افتتحت المدرسة

عقيدتي  
مفتوحة  
على الأرض  
والسماء  
وجيلنا عاش  
المعاناة  
والوجع

من توفيقات  
جبلي أن  
الجعفرية  
افتتحت  
السنة الأولى  
المتوسطة!

# يسكن ذاكرة صور



الأصالة في تراثنا الثقافي. أرضنا أرض الأديان، والقومية ليست زياً موسمياً يتبدل كما اعتدنا أن تتبدل شعارات (النضال) في الزمن الأخير، ولقد تاهت قوميتنا عندما رفعت شعارات سياسية حسبناها نضالات وأفكاراً، والنضال لا يكون دون مضمون فكري وهو ما افتقدناه.

جدك كان له عليك حق الاحتضان ثقافة وحياة وكذلك السيد جعفر؟

ليس بالضرورة أن يكون بالشكل المباشر، ففي السلوكيات التي كان يسلكها جدي والقناعات التي كان يصر عليها بالمواقف الإسلامية والقضايا القومية وبالذات القضية الكبرى فلسطين والوحدة أو الاتحاد العربي، ولو على مستوى توحيد وزارات الخارجية والتربية والتعليم ومصالح الجمارك (الاقتصاد)، وكان من السلوك المباشر هو تأييد تحركاتي الوطنية. والشخصية الثانية عمي السيد جعفر منذ أن وضع بيدي ورقة هتافات ضد وعد بلفور لأكون أمام تظاهرة خرجت لهذا الغرض من لمدرسة الجعفرية سنة 1940، ولم تكن على علم في صور بهذه المناسبة. وعلى مدى فترتي الدراسية الأولى كان لبعض الأساتذة دور بالخصوص الأستاذة إنعام الجندي الذي كان معلماً للغة العربية في الجعفرية سنة 1945 - 1946 الدراسية، كما كان لغیره ما أحفظه بتكريم.

حاوره: أحمد حلاوي

في الحلقة المقبلة تعرض لمرحلة ما بعد الأربعينات وثقافة مدينة صور وتحركات السيد حسين شرف الدين السياسية والحزبية والثقافية والطلابية في العدد (90).

الشهادة  
الثانوية  
كانت "آخر  
الطريق"  
ولكن

جدي جعل  
من المولد  
النبي في أيار  
1938 بداية  
يقظة

نحن في  
أرض الأديان  
والقومية  
العربية  
ليست زياً  
موسمياً  
للتبديل

في الجعفرية  
ندعوا صباحاً  
"رب راع  
والدي وأثر  
الحياة لمن  
علموني" أمين

مما دفع الشاب المناضل عادل عسيران، وكان معروفاً بنشاطه النضالي، فنزع طربوشه لجمع التبرعات دعماً للثورة. وبعد هذا دخلت الجعفرية سنة افتتاحها، ولأتفاجأ، فمن (أصول التأسيس التربوي والتعليمي أن يعبر الطفل (مطهر) السيد نور الدين الأخوي (مدرسة قرآنية). وهناك يجب أن يروض الصغير على (دوز) قلق ينسبه حليب أمه - كما يقولون - وبالثناء ويختم القرآن و قواعد الخط، (المدرسة ملحقاً عليها).

أقول: دخلت الجعفرية، وكان الجديد عند اصطفاك الطلاب صباحاً دعاء: ربّ الوجود ملك والقدرة حكمك والعقول مستجلى جلالك.. راع والدي كما راعيان.. وأثر ليالي الحياة لمن علموني... إلى آخر دعاء كان كتبه الأديب ولي الدين يكن لإحدى مدارس الرهبات.

ومع الأيام وإذا الجعفرية شكل آخر من المدارس، فنشيد (يا تراب الوطن) - وقيل بأنه ممنوع في البلاد المحتلة فرنسياً - وإذا هو نشيد رحلاتنا وتجمعاتنا، ثم أناشيد: موطني - نحن الشباب - يا علم وغيرها، وإذا صغار صور ينشدونها في البيوت والحواري، ومحمي من أذهانهم كل الأناشيد التي تمجد فرنسا. فممنذ التاسعة من العمر ارتبط في ذهني عنصر الثقافة والجهاد، وقرّ في وعيي أن الجهاد ثقافة وقيادة.

## صناعة مصير

ولكن العصبوية متجذرة في بعدكم (ككل) إسلامياً؟

هنا أيضاً تقع في (بدع) مصطلحات الأهواء السياسية يمينا ويسارا الإسلامية عقيدة أنهج إليها بالتشيع، والقومية ترابط بين أهل المصير الواحد، كما الوطنية التزام بالمكان الذي يمنأخاته تتفاعل فيه تحركات القوم في عملية صناعة المصير الواحد، ولا انفصال الدين، فيما حدده منظرو القومية العربية، عنصراً من عناصر القومية العربية، وقد شوّه المعنى بأن حصرت بالإسلام، فيأتي (المنظرون الإبداعيون) ليحدثوا بكل ما يوصلنا عن

بالالتحاق بإحداها. أضاف السيد شرف الدين: جيل يعرف أنه يسير في طريق مقطوعة الآخر، ومع ذلك يجهد نفسه لمتابعة الطريق إلى المنظور من النهاية، ربما ليعذر نفسه أنه حاول... أنه عمل فوصل إلى مكان ينظر إليه فيها بتمايز اجتماعياً، ولكن تبين فيما بعد، أن البعض وكأنه أخذ من الشهادة محطته كأنها نقطة مركز مراقبة، حتى إذا افتتحت الجامعة اللبنانية دار المعلمين العليا (كلية التربية الآن) ثم كلية الحقوق فسارع للالتحاق بإحداها بعد سنين من الركون ونال المؤهل العلمي، ولكنه لم يستخدمه في المسار الذي بلغه، لأن ما هو فيه أفقاً وعملاً، أرفع من الحقوق التي يمنحها المؤهل ومع ذلك سعى له.

## يقظة وثورة

أنت شيعي الهوى والانتماء، لكن كتاباتك تذهب إلى انفتاح طوعي على مستويات عدة؟

سؤال أعادني للتاسعة من العمر، لعرض لي شكلين من النشاط الثقافي، أولهما مجالس الحسينية حيث كان جدي (الإمام عبد الحسين شرف الدين) ينوع أحاديثه بين تاريخ وأدب وشعر وفقه وتفسير وبكل ما يحوم حول النهضة الحسينية، شارحاً ميكناتها وجذورها متدرجاً إلى الحدث، متوقفاً في كل ليلة عند نقطة تحليل موقف أو شرح أو نداء، ليقوم بعده الخطيب الحسيني فيقرأ شعراً رقيقاً ومثيراً تشد العاطفة إلى الحدث. وثانيهما: كانت مناسبة المولد النبوي الشريف في 12 أيار 1938، فرأى جدي أن يجعلها مناسبة لمولد يقظة، وذلك بأن تكون لشرح أسباب الثورة القائمة في فلسطين لدعم الثورة. وقد تكلم عمي السيد جعفر، وكان فتى وأول مناسبة يشارك بها، ثم قصيدة بعنوان أبه فلسطين لفتى الجبل (السيد عبد الرؤوف الأمين) ومطلعها:

ذودوا عن الحرم المصون

ذود الأسود عن العرين  
وأخيراً تكلم جدي فآثار حماس الحاضرين